المبحث الأول
الفقه نشأته وتطوره

الفقه لغة: الفهم. وفي الاصطلاح الشرعي:- الأحكام الشرعية العملية المستنبطة من أدلتها التفصيلية (المعينة) .

ويُعد الفقهُ من صفات تصرفات الإنسان وهي: الوجوب، والندب، والحرمة، والكراهة، والاباحة. لأن الحكم الشرعي: هو مدلول خطاب الله المتعلق بتصرفات الإنسان المكلف على وجه الاقتضاء، أو التخيير.

نشأة الفقه:

نشأ الفقه مع نشأة النصوص، لأن كل حكم منصوص عليه مباشرة، كما في القرآن والسنة النبوية، أو بصورة غير مباشرة، كما في المصادر الكاشفة، يُسمّى فقهاً، بعد إستخراجه وإبرازه للتطبيق والعمل به غير أن الحكم المأخوذ من نصوص القرآن مباشرةً يُسمى فقه القرآن، والمأخوذ من السنة النبوية مباشرة يُسمّى فقه السنة، والمأخوذ من المصادر الكاشفة يُسمّى فقه الاجتهاد.

طريقة فقهاء الصحابة في إستخراج الأحكام:

كان الفقيه الصحابي إذا أراد حكما لتصرف أو واقعة يراجع القرآن الكريم أولاً، المنبع الأول الأصل الأصيل، فإن لم يجده فيه لجأ الى السنة النبوية، فإن لم يجده فيها، إستخدم مصدراً من المصادر الكاشفة واجتهد واستعمل رأيه عن طريقها للوصول الى حكم الله.

الطابع العام لفقه الصحابة:

١- كانت مصادر فقه الصحابة القرآن والسنة ثم الاجماع ثم الرأي.
٢- كان فقهاً واقعيّاً حيث ساروا على نهج كانوا يتبعونه في عهدهم فلا يبحثون عن حكم تصرف أو واقعة إلا بعد الوقوع.
٣- كان فقههم معلّلاً بعللٍ وحكمٍ مأخوذه من القرآن والسنة.
٤- كان إجتهاهم فيما لانص فيه فسيحاً مجاله متسعاً علاجه لحاجات الناس ومصالحهم.

أسباب إختلاف فقهاء الصحابة:

يمكن إرجاعه الى الأسباب الرئيسة الآتية:
١- الاختلاف في الثقة بما يروى عن الرسول(ﷺ) بعده، فمنهم من كان يعمل بحديث الراوي، لثقته به ومنهم من لايثق به فلا يعمل بما يرويه.
٢- عدم كونهم على مستوى علمي واحد.
٣- إختلافهم في الجرأة على الاجتهاد والأخذ بالرأي.
٤- تأثرهم بالأعراف والعادات المحلية بعد إنتشارهم في الأقطار الإسلامية.

أسباب قلة إختلاف فقهاء الصحابة:

١- سهولة إتصال بعضهم ببعض في صدر الإسلام والاتفاق على رأى واحد.
٢- إستخدام نظام الشورى في أحكام القضايا المهمة.
٣- قلة الوقائع والمشاكل في عصرهم قبل إتساع رقعة الدولة الإسلامية.
٤- قلة رواية الحديث التي أصبحت بعدهم من أسباب إختلاف الفقهاء من حيث تفسير الحديث والثقة بالراوي.
٥- عدم التسرع في الاقدام على الرأي فكل إجتهاد منهم كان مسبوقاً بالتروي ودقة دراسة الموضوع المعنيّ بالحكم [1].

---

[1] ينظر مؤلفنا أسباب اختلاف الفقهاء في الأحكام الشرعية /ص١٦ ومايليها.

تطور الفقه:

نشأ الفقه في عهد الرسالة، ثم مرّ بتطور حتى وصل الى قمّته، ثم أصيب بانتكاسة وجمود، كما في الايضاح الآتي:

أولاً: الفقه الإسلامي في عصره الذهبي:

تعتبر الفترة الممتدة من القرن الثاني الهجري الى منتصف القرن الرابع الهجري من أزهى عصور الفقه الإسلامي حيث بلغ ذروته في الدقة وقمته في الاتساع وأصبح له مناهج واضحة وطرائق مرسومة محدودة.

ميزان الفقه في عصره الذهبي:

١- نهوض الفقه نهضة رائعة حيث وصل الى درجة النضج والكمال فلم يترك أمراً ذا صلة بالإنسان سواء على النطاق الفردي أو النطاق الجماعي الا وقد تعرض لبيان حكمه.

٢- ظهور نوابغ من الفقهاء ألذين اعترف لهم الجمهور بالزعامة، ونشأت مذاهب فقهية جماعية.

٣- إزدهار تدوين الفقه لمختلف المذاهب.

٤- اتساع نطاق الفقه الافتراضي[1] وبوجه خاص في فقه أبـي حنيفة (رحمه الله).

٥- ظهور المصطلحات والقواعد الفقهية.

٦- اتساع نطاق الخلاف بين الفقهاء في مسائل الفروع.

عوامل النهضة الفقهية:

١- عناية الخلفاء العباسيين- بعكس الأمويين- بالفقه والفقهاء.

٢- ظهور كبار المجتهدين وحريتهم في ممارسة الاجتهاد.

٣- كثرة الوقائع بعد أن إتسع إقليم الدولة الإسلامية.

---

[1] وهو إحضار الحكم لما يحدث في المستقبل.

٤- دخول عدد كبير في الإسلام من غير العرب في البلاد ذات الحضارات القديمة كالفرس والروم وكان لهؤلاء علم بالفلسفة والمنطق والديانات السابقة.
٥- تأثر فقهاء الشريعة بثقافات أمم إعتنقت الإسلام.
٦- إزدياد نشاط حركة التدوين والترجمة لمختلف العلوم وظهور ترتيب وتبويب الابواب الفقهية.
٧- إزدياد المناقشات والمناظرات وتبادل وجهات النظر، فأدّى كل ذلك الى توسيع دائرة الحركة الاجتهادية وتكوين آراء فقهية قيّمة.

ثانياً: اسباب إنتكاسة وجمود الفقه الإسلامي:

العوامل التي أدت الى إنتكاسة الفقه الإسلامي بعد نهضته كثيرة، منها:
١- الضعف السياسي في الدولة العباسية أدى الى ضعف روح الاستقلال في التشريع عند العلماء المسلمين.
٢- إلتزام كل عالم فقهي بمذهب إمامه بحيث أخذ كل تلميذ لائمة المذاهب الفقهية يدافع عن مذهبه ويتعصب للمدرسة التي ينتمي إليها.
٣- حلول المذهب الفقهي محل الشريعة الإسلامية من الناحية العملية واستمر ذلك الى عصرنا هذا بحيث أصبحت النصوص الفقهية كنصوص الشارع.
٤- الاعتماد على الآراء الفقهية المدوّنة فأصبح علماء كل مدرسة من المدارس الفقهية عالة على فقه أئمتهم واتبعوه جملة وتفصيلا.
٥- انحسار جهد العلماء في اختصار الكتب الفقهية وشرحها والتعليق عليها بالحواشي أو الاعتراضات.
٦- التعصب المذهبي وعدم الجرأة على إستنباط الأحكام من ينابيعها الأصلية.

المبحث الثاني
أئمة المذاهب الفقهية المدونة

نتناول في هذا المبحث بإيجاز أهم رؤساء المذاهب الفقهية المدونة والمتداولة في العالم الإسلامي حسب تسلسلهم التاريخي:

١- الإمام جابر الاباضي (٢١- ٩٣هـ) هو الإمام جابر بن زيد الأزدي الاباضي المؤسس الأول لمذهب الاباضية الذي هو أقدم المذاهب الفقهية من حيث النشأة فهو عماني الأصل ومن كبار التابعين وأقام بالبصرة ودرس على كبار فقهاء الصحابة منهم عبدالله بن مسعودوأنس بن مالك وغيرهما.

والاباضية فرقة معتدلة من الخوارج وهي أقر بها الى الجمهور المعتدل رأيا وتفكيرا واشتهر هذا المذهب بالاباضية نسبة الى عبدالله بن اباض التميمي إعترافا بدوره وتطويره لهذا المذهب ووضع أسسه.

وقد عرف هذا المذهب بالاعتدال فهو لم يقف في النزعة الفقهية عند ظاهر النصوص كالظاهرية، ولم يتوسع في الأخذ بالرأي كالحنفية.

أهم مصادر فقهه:- الكتاب ثم السنة ثم الاجماع ثم العقل.

٢- الإمام زيد (٨٠- ١٢٢هـ): هو زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ . مؤسس مذهب الزيدية ولد في بيت النبوة من أسرة تحمل لواء علم الشريعة والتقوى والصلاح. وتلقى علومه من أبيه وأخيه محمد الباقر، وعبدالله بن الحسين وكثير من فقهاء التابعين.

أهم مصادر فقهه: الكتاب والسنة والقياس والعقل.

٣- الإمام جعفر الصادق (٨٠- ١٤٨ هـ):- هو عبدالله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. ويعتبر أكبر

أئمة الشيعة الاثنا عشرية في عهد تابعي التابعين وكان من سادات أهل البيت ولقب بالصادق لصدقه.

نشأ في بيت المجد والعلم وعاصر جمهرة كبيرة من فقهاء التابعين.

مصادرفقهه:- الكتاب والسنة وهي عندهم ماصدر عن المعصوم من الرسول(ﷺ) والائمة المعصومين بشأن التشريع ثم إجماع الطائفة ثم العقل.

٤- الإمام أبو حنيفة (٨٠- ١٥٠هـ):- هو نعمان بن ثابت بن زوطي بن جاه. فارسيّ الأصل وكان جده من أهل كابل. ويعتبر من أتباع التابعين. ولد بالكوفة واحترف تجارة الخزّ، ثم إنصرف الى العلم فعاش بقية حياته متعلما وفقيها عظيماً ومؤسسا للمذهب الحنفي. وكان أبو حنيفة (رحمه الله) ذا شخصية قوية لامعة وقد أثّرت عوامل ذاتية وخارجية في تكوين شخصيته الفقهية ومن أهم تلك العوامل:-

أ- صفاته الذاتية التي جبل عليها.

ب- شيوخه الذين التقى بهم وتلقى منهم العلم، فرسموا له الطريق التي سلكها في منحاه الفقهي.

جـ- حياته الشخصية وتجاربه في أدوار حياته، وصلته الوثيقة بالمجتمع الذي عاش فيه.

د- بنيته الفكرية التي ترعرت مواهبه في رحابها. إضافة الى تأثره باستاذه حماد بن أبـي سليمان حيث لازمه زهاء (١٨) عاماً في مدرسة الكوفة.

ومن أهم مصادر فقهه:- القرآن، والسنة، والاجماع، والقياس، والعرف، والاستحسان، والمصلحة، وقول الصحابي.

٥- الإمام مالك (٩٣- ١٧٩هـ):- هو مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي [١] من أهل المدينة المنورة طلب العلم من أئمة مدرسة الحديث [٢]. ومن شيوخه عبد الرحمن بن هرمز وعبد الرحمن المعروف بربيعة الرأي مارس التدريس والفقه

---

[١] نسبة الى الأصبح وهي قبيلة من اليمن.

[٢] التي كان مقرها المدينة المنورة، كما أن مقر مدرسة الرأي كان الكوفة.

في المدينة المنورة وهو إبن (١٧) سنة وكان يجلس في مسجد رسول الله(ﷺ) ويشير الى قبره الشريف عند قراءة الحديث.

ومصادر فقهه: القرآن، والسنة النبوية، والاجماع، والقياس، والاستحسان، والمصلحة، والذرائع، والعرف، وقول الصحابي. وعمل أهل المدينة (أي إجماعهم)

٦- الإمام الشافعي (١٥٠- ٢٠٤ هـ): هو ابو عبد الله بن محمد بن ادريس بن العباس بن شافع الشافعي بن المطلب بن عبد مناف _ وهو الجد الرابع لرسول(ﷺ) والجد التاسع للإمام الشافعي.

ولد بغزّة بعد أن ذهب إليها أبوه فتوفى فيها وبعد سنتين من ميلاده حملته أمه إلى موطن آبائه مكة.

وأخذ فقه العراق في بغداد من محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبـي حنيفة، كما أخذ فقه الإمام مالك.

ومصادر فقهه:- القرآن، والسنة، والاجماع، والقياس، والعرف، والاستصحاب، وقول الصحابي.

ونزعته الفقهيه كانت وسطاً بين نزعتي أهل الحديث وأهل الرأي، لأنه زاوج بين إتجاه الإمام ابـي حنيفه واتجاه الإمام مالك. وفقهه في العراق يسمى القول القديم ثم لما ذهب الى مصر وتأثر بالبيئة، تراجع عن أقواله السابقه وأسس مدرسة جديدة وفقهاً جديداً سمي المذهب الجديد.

٧- الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤- ٢٤١هـ): هو عبد الله بن محمد بن حنبل بن هلال بن أنس الشيباني المروزي [١] البغدادي [٢].

وطلب العلم على شيوخ بغداد والكوفة والبصرة والمدينة.

---

[١] أي من حيث الأصل.

[٢] أي من حيث النشأة.